الفصل الثاني

البيئة والنشأة

حياتى

كلما تذكرت حياتى . . ماضيها البعيد كما وعيته ، وسيرها المتتابع كما واجهته،وحاضرها الراهن كما أعيشه ، قلت : الحمد لله .

وما من شك ، فى أنه مرت بى ظروف ، اعتقدتها – فى أثناء – حدوثها مريرة ، ولكنها كانت فى حقيقتها حلوة .

(وعَسَى أنْ تكرَهُوا شَيْئاً وهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) .

ومرت بى ظروف تألمت لها . . . ولكن : من الذى سارت به الحياة دائماً – رخاء ؟

وإذا خُيِّرت الآن – وقد تخطيت الخامسة والستين – فى الحياة التى أتمناها ، لم أختر سوى حياتى ، التى عشتها ، لم أختر سواها فى جملتها[1]

لقد ولدت فى صحة لا بأس بها ؛ أما من الناحية الجسمية فإن الله سبحانه وتعالى قد عافانى من التشويه فى الجسم جملة ، وفى الجوارح كذلك : العينان سليمتان وسمع الأذنين عادى .

---

(١) لقد سبق أن كتبت ما يلى : [لو استقبلت من حياتى ما استدبرت لما اخترت حياة أخرى] .

ولقد وقفت فى فترات كثيرة على مفترق طرق ، وكان بعضها براقاً وكان الله سبحانه وتعالى يختار لى : فالحمد لله .

وهكذا لا شذوذ – إفراطاً ولا تفريطاً – وعافانى – وله الحمد – من السِّمْنة ، ومن النحافة ، وجعلنى وسطاً بينهما – وله الحمد – وعافانى من الطول والقصر ، وجعلنى وسطاً – وله الحمد – وعافانى من البياض الأشقر ، ومن السمرة الداكنة – وله الحمد – ولم أُصب فى هذه السنوات الطويلة ، التى مرت بى ، بمرض خطير ، ولله الحمد والمنة والفضل .

وإذا جئت – الآن – إلى الذكاء ، والعقل ، والاتزان ، فإنى أحسب أننى – فى كل ذلك – وسط .

وأشهد أننى لست حاد الذكاء ؛ فكم رأيت من هم أذكى منى ، وعدم الحدة فى الذكاء ، كان له نتيجتان :

النتيجة الأولى :

أننى كنت فى عجز يكاد يكون تاماً عن الفهم – فى الوقت المناسب – لما كان يدبر لى ، من مكر ، ومن مكائد ، ولما كان يحيط بى أحياناً ، من جو مشحون بالخبث والدهاء .

إن بعض الناس يسعده أن يسىء إلى الآخرين ، وأسباب ذلك تتعدد وتختلف : منها الحسد ، ومنها ضعة النفس .

إنه لضعة نفسه يحب أن ينزل بالآخرين – أخلاقياً – حتى يكونوا فى مستواه من الضعة ، أو أن ينزل بهم – لرفعتهم فى المجتمع – حتى يرتفع هو إلى مكانتهم أو يرتفع – فى زعمه – فوق رفعتهم ، أو ينزل بهم إلى مستوى أقل ، . . . . إلى مستواه هو .

ويأخذ – بذكاء إبليس – يدبر المؤامرات والمكائد ، ويشيع ما ليس صحيحاً ، ويلفق ، ويعيش فى جو من الباطل طيلة حياته .

هل تدبرت قصة إبليس وإغوائه لآدم ؟ لِمَ أغواه ؟ ولكن يحسن أن نتحدث فى شيء من السعة عن القصة ؛ ففيها عظة ، وفيها عبرة .

إبليس والإفساد

عصى إبليس ربه تعالى ، وكان من الممكن أن يتجه إلى الله سبحانه بالتوبة الصادقة ، فينال العفو والمغفرة ، ولكنه عاند ، ولجّ فى عناده ، وطلب من الله تعالى أن ينظره إلى يوم يبعثون ، ليغوى بنى آدم . .

وكانت معصيته :

١ – حسداً .

٢ – وكبرياء .

٣ – وضعة .

وهذا يشعر بأن عبادته التى كان يستغرق فيها مع الملائكة ، كانت زهواً ، وخيلاء ، ولم تكن خالصة لوجه الله تعالى :

وظهر إبليس – بالمعصية – على حقيقته : حقوداً ، حسوداً ، متكبراً ، وضيعاً .

فطرده الله من رحمته . .

وبدأ إبليس الإفساد . .

وذهب إلى آدم وحواء عليهما السلام ، وأخذ يوسوس لهما بالأكل

من الشجرة التى نهاهما ربهما عنها . .

لقد كان آدم عليه السلام طاهراً نقيًّا ، صافياً زكيًّا ، وكان فى هذا الطهر ، وهذا النقاء ، يعتقد أن الكائنات هكذا خلقوا .. طاهرين أصفياء . . فلما وسوس إليهما إبليس ، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين . . وأتاهما من موطن الضعف فى الإنسان ، قائلاً :

« ما نهاكُما رَبُّكُما عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، إلاَّ أنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ ، أو تَكُونا مِنَ الخالِدِينَ » . .

صدّقاه ، وأكلا من الشجرة ، ودخلا فى جو الإثم بذلك والمعصية . .

وما أراد إبليس بذلك ، إلا أن ينزل بالطهر والنقاء ، إلى جو الفساد والإثم ، وما كان له من هدف إلا أن ينزل بالشرفاء الأصفياء إلى مستواه هو . . . .

ولكن الله تعالى أخلف ظنه ..

فقد اتجه آدم وحواء إلى الله بالتضرع ، والتوبة ، وقالا :

« رَبَّنا ظَلَمْنا أنْفُسَنا وإنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ » .

وكانت النتيجة :

« ثم اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وهَدَى » .

ورد الله كيد الشيطان إلى نحره ، وجعل كيده ينقلب حسرة منه على ما فاته من إغواء آدم إغواءً أبديًّا . ولا ريب أن كل من فوض أمره إلى الله فإن الله تعالى يرد كيد الماكرين به إلى نحورهم ، ولقد عصمنى الله تعالى – وله الحمد – من أن أنزلق إلى مستوى الماكرين ؛ فقد كان سبحانه وتعالى رءوفاً بى فى كل الظروف ، ولقد اتخذت التفويض شعار

لى ، فكنت أكرر :

« وأفَوِّضُ أمْرِى إلَى اللهِ ؛ إنَّ اللهَ بَصِير بِالعِبَادِ » .

يقول الإمام « جعفر الصادق » ، رضى الله عنه :

« عجبت لمن ابتلى بالمكر ، كيف يغفل عن :

« وأفَوِّضُ أمْرِى إلَى اللهِ ، إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ » .

والله سبحانه يقول :

« فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا » .

وكان الله تعالى يقينى سيئات ما مكروا ، ويرد كيد الكائدين إلى نحورهم ، وله الحمد .

أما النتيجة الثانية :

وهى نتيجة أوحت بها آثار النتيجة الأولى ؛ فهى أننى – وقد اشمأزت نفسى من الذين أقاموا حياتهم على المؤامرات والمكر ، لم ألجأ إليها ، ولم أحاول أن أقترب منها : إننى أعترف – صادقاً – أننى لم أدبر تدبير مكر فى حياتى ، ولم أدبر تدبيراً سرياً ضد أى كائن .

ولقد كنت واضحاً دائماً ، وإذا أردت أمراً فعلته مكشوفاً لا أُسر فيه .

السرية المعلنة

ومسألة « السرية المعلنة » – إذا صح هذا التعبير – فى حياتى ، لا ترضى بعض الذين يحيطون بى .

فى يوم من الأيام – وقد كنت – إذ ذاك أميناً عاماً لمجمع البحوث الإسلامية – أخذ المحيطون بى يتحدثون عن السرية ، وينصحون أن أستخدم الأغلاق والمفاتيح (لأدراج) المكتب ، على هيئة معينة ، مخصوصة ، وألحوا ، واستجبت .

ورتبت الأمور ، فى (الأدراج) على ما أرادوا ، وتثبت من المفاتيح ، ومن أن (الأدراج) قد أغلقت ، وسارت الأمور على ما يشتهون .

وانتهى العمل ، وخرجت ، وعندما وصلت إلى البيت ، تذكرت أننى تركت المفاتيح فى (الأدراج) . . . .

وعندئذ عدت إلى طبيعتى : لا سرية فى حياتى .

أتعرف العالم الكبير « النظام » إمام المعتزلة فى عصره ؟ يروون عنه . . أنه كان أضيق الناس صدراً بسر ، وأن صدره كان يضيق أكثر ، كلما كان التأكيد عليه بالسرية أكثر .

ولما كان يقال له عن ذلك ، كان يجيب :

إننى لست حريصاً على كتمان هذا السر ، بمقدار حرص صاحبه عليه ، وإذا كان صاحبه قد أفشاه لى فليس علىّ من حرج ، فى أن أقتدى به فى الإفشاء .

كان « النظام » يذيع أسراره فيما يتعلق بنفسه ، أو بتعبير آخر ، لم يكن له سر ، وهكذا كان بالنسبة لكل سر .

ولكننى لا أقتدى « بالنظام » فى إفشاء أسرار الآخرين ، فليس « النظام » — فى إفشاء الأسرار — قدوة ، لا ولا قلامة ظفر . وإذا كنت قد ضربته مثلا للرجل الواضح ؛ فإنه لا يقتدى به فيما يخالف الجو الإسلامى ، والجو الإسلامى يحرّم إفشاء الأسرار ، إنها أمانة ، والأمانات لا تعطى للغير وإفشاؤها خيانة .

والإسلام يعلن أن من صفات المنافق .. أنه إذا اؤتمن خان ، وبالتالى ؛ فإن المؤمن ، إذا اؤتمن وفّى .

وأعود إلى حياتى من جديد ..

إننى وإن كنت غير حاد الذكاء ؛ فإنى أيضاً لست قوى الذاكرة ، ولكننى أقول — فى غير فخر — إنى لست بليداً ، ولقد كان ترتيبى دائماً فى الدراسة فى أوائل المتوسطين ، وهو ترتيب أحمد الله تعالى عليه وفيما يتعلق بالاتزان ، فيكفينى أن أقول ! إننى لست « متزمتاً » ، وليس بى جمود وإذا نظرت إذن إلى الناحية الجسمانية ، والعقلية ، فلا يسعنى إلا أن أقول « الحمد لله » .

النشأة

ونشأت – والحمد لله – فى أسرة ميسورة ، إنها من هذه الأسر التى يقال عنها « أعيان الريف » .

لم تكن أسرة واسعة الثراء ، ولم تكن فقيرة ، وإنما كانت ميسورة .

وكان نجم الأسرة اللامع هو والدى . كان رجلاً مكتمل الرجولة . كان مكتمل الرجولة فى أخلاقه ، إذا عاهد وفّى، وإذا قال صدق ، يكرم الضيف ، وكان مشهوراً بالكرم ، ويعطف على الفقراء ، ويتصدق عليهم ، وكان جاره يأمن بوائقه . يساعد فى الملمات ، بماله ، وبرأيه .

وكان ذا رأى سديد ، يلجأ إليه الناس يستشيرونه فى أمورهم ، ويحكّمونه فى قضاياهم .

وكان صاحب دين يحرص على عدم الإخلال به ، ويحرص على أن تلتزمه الأسرة : لقد كان على خلق كريم ولا تُستغرب هذه الصفات من رجل من النسل الشريف الطاهر : إنه حسينى ، يمتاز بما يمتاز به آل البيت ، من خلق الشهامة والمروءة والكرم والتزام الحق . . .

درس فى الأزهر فترة طويلة من الزمن ، حضر فيها على كبار الأساتذة ، من بينهم « الشيخ محمد عبده » وقد . . . رأيت له بعض الملخصات من دروس التفسير للشيخ « محمد عبده » وقد قارنتها بموضوعاتها فى تفسير المنار ، فوجدت توافقاً فى المعنى ، ولم يمنعنى من نشرها ، إلا أنها كانت متناثرة ، ولما طال بها الزمن ، وتقلبت بها الأحوال زادت تغيّراً .

وإنه ليكفينا فى هذا المجال ما حبّره قلم المرحوم « الشيخ رشيد رضا » .

وكان يتحدث عن بعض أساتذته بصورة جميلة ، تحبب الإنسان فى الأزهر ، وجوّه ، وعلمائه .

ويتحدث عن زملائه ، فى صورة من المودة ، والحب ، تجعل الإنسان يحبهم .

ولو خيرت ما اخترت به بديلا .

ولو خيرت كذلك بالنسبة لوالدتى ما اخترت بها بديلاً : إنها شريفة هى الأخرى ، حسينية كذلك .

وقد وهبت حياتها — فى سماحة — لوالدى ، ولأبنائها ، ولم تألُ جهداً فى توفير الراحة لهم ، وكانت كريمة بالنسبة للفقراء ، والمساكين ، تعطف عليهم ، وتبرهم ، وترسل إليهم من الطعام ، والكسوة ، ومما تثمر الأرض من خضراوات ، وبقول ، وفواكه .

رحم الله والدى ، ورحم الله والدتى ، وجزاهما خير ما يَجْزِى العاملين المخلصين .

« رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِى صَغِيراً » .

« ربِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعَلَى والِدَيَّ ، وأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضَاهُ ، وأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ، وإِنِّي مِنَ المُسْلِمِينَ » .

وإذا نظرت إلى والدى فإنى أقول : الحمد لله . وإذا نظرت إلى والدتى فإنى أقول : الحمد لله .

تحديد النسل فكرة منكرة

وكان والدى ووالدتى كلاهما يحبان الإنجاب ، ويحبان – على الخصوص – كثرة الذرية من الذكور .

إنهما لم يكونا من أنصار تحديد النسل ، ولم تظهر هذه الفكرة المنكرة إلا فى العصور الحديثة ، وأراد أنصارها تبريرها ؛ فلجأوا إلى الحديث عن موضوع « العَزل » ، وليس لموضوع « العَزل » بها من صلة .

إن موضوع « العزل » ، مَثَلُه كمثل الامتناع عن النسل ، بالنسبة للأم المريضة ، التى يضرها الحمل .. أترى أن الامتناع عن الحمل بالنسبة للأم المريضة يأتى برهاناً فى باب إباحة « تحديد النسل » هناك المرض الجسمانى .. إنه لا يتخذ حجة لإباحة تحديد النسل ، وهناك الإرادة الحكيمة عند كثير من الناس ، فى الحرص على شرف الأنساب ، أو بتعبير مناسب ، فى الحرص على صحة الأنساب ، أى على ألا تكون الأنساب مريضة .

والغالبية العظمى ، من الجوارى لا يعرف لهن أنساب ، فأبيح « العزل » بالنسبة للجوارى ، حرصاً على النطفة من أن تصل إلى خضراء الدمن ، سواء كانت خضراء الدمن من الأحرار ، أو من الجوارى .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إياكم وخضراء الدمن قالوا : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء فى منبت السوء) .

وكانوا يعزلون تخيراً لنطفهم .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(تخيروا لنُطفكم فإن العرق دساس) .

إن فى بنى البشر أناساً يتطهرون ، ومن تطهرهم أن يحرصوا على الفضيلة فى أنفسهم ، ويحرصوا على أن يهيئوا جو الفضيلة لأبنائهم ، قبل أن يولدوا ، وبعد أن يولدوا ، ومن هنا كان حرصهم على أن يظفروا بذات الدين ، فإذا لم يتهيأ لهم ذلك فإنهم لا يجدون بأساً فى الامتناع عن الإنجاب ، حتى يهيئ لهم الله الجو المناسب للإنجاب ، فإذا ما تهيأ الجو المناسب للإنجاب – وهذا ما نرجو أن يتنبه إليه المؤيدون لتحديد النسل – فإنهم ينجبون بدون حساب – شاكرين الله على نعمته ، لايحددون نسلاً ، ولا ينظمون نسلاً ، لا صلة إذن للعزل بموضوع تحديد النسل .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم ، حين يطمئنون إلى شرف الجوارى لا يعزلون ، كما حدث ذلك بالنسبة لبنات كسرى ، وقد أنجبن الشرفاء ، والنجباء .

هل سمعت عن أحد من الصحابة حدد النسل لضيق ذات اليد ؟

أين إذن قول الله تعالى :

« وَمَا مِنْ دابَّةٍ فِى الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُها » . . ؟

وأين إذن :

« وفِى السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » . . ؟

ثم القسم الإلهى على ذلك .

« فَوَرَبِّ السَّماءِ والأَرْضِ إنَّهُ لَحَقٌّ » .

ويلجأ أنصار تحديد النسل دائماً ، إلى رقعة الأرض المصرية

المزروعة ، ويحددونها (بالمتر) (والسنتيمتر) ويحددون ما تكفيه هذه الرقعة من أفواه ، ويحسبون ذلك بالعقل « الألكترونى » .

وإنهم لمخطئون .

أولاً : لأن الصحراء يمكن أن تُقْهر ، وأن تُذلل ، وأن تصبح ثروة ضخمة ، لو وجدت الإخلاص لله ، وللوطن ، لو وجدت رجالاً أذكياء ، قد تخلوا عن الخمول ، لو وجدت رجالاً ينظرون إلى مصر ، محبين لها ، عاملين من أجلها . .

وخذ أمثلة من كل قارة فى العالم فستجد من زرعوا الصحراء بزراعات مناسبة ، وتغلبوا عليها ، إن أشجار الزيتون مثلاً تصبر على الماء ثلاث سنوات ، هل فكرنا فى زراعة الزيتون ؟ وليس فى أراضينا أرض لا ينزل فيها المطر ، لا صيفاً ، ولا شتاء . ثلاث سنوات متوالية ، إلا النـــادر المحدود ؛ إن أقاليم « بتونس » لا تنزل فيها الأمطار إلا نادراً : لقد زرعتها « تونس » زيتوناً ، وأصبح الزيتون فى تونس من المصادر الرئيســـية للثروة ، ويستطيع خبراء الزراعة أن يحدثوك عن إمكانات لا حد لها ، فيما يتعلق باستثمار الصحراء .

هل قرأت كتاب « الصحراء ثروة وثورة » ؟

إن مؤلفه يؤكد أنه من الممكن زراعة سبعين مليوناً من الأفدنة فى مصر .

لابد من أن ينتفض رجال مصر انتفاضة مؤمنة بمصر ، وبمستقبل مصر ، فيفكروا فى جد ، وفى إخلاص ، فى تذليل الصحراء وقهرها ؛ وفى الاستفادة بكل قطرة من مياه النيل ، وفى طرق الرى الحديثة .

وفى وسائل الإخصاب الزراعى الكثيرة .

وفى عصر مزدهر لمصر الزراعية .

ومع كل ذلك فإننا نقول مع القائلين المخلصين الصادقين . .

إن الاتجاه فى مصر إلى الزراعة وحدها ، قصور فى التفكير ، بل هو قصور فَرَضَهُ المستعمر ، ولم تتخلص منه للآن .

إن المستعمر أراد لمصر أن تقبع بين حدود معينة من الأرض الزراعية ، لا تنطلق منها إلى بقية البقعة الأرضيـــة الصحراوية ، لتظل محدودة الدخل ، محدودة الإمكانات ، محدودة التأثير فى العالم ، لا دور لها بين الأمم .

واستجاب عملاء الاستعمار فوجّهوا الأنظار دائماً إلى خمسة ملايين من الأفدنة هى الأرض الزراعية فى مصر ، وأعلنوا ألا مجال فى غيرها ، وتركوا النيل يصب فى البحر ، ووجه المستعمر إلى الزراعة فقط .

إن مصر – فيما رأى المستعمر – بلد زراعى ، لا شأن له بالصناعة ، وليست مصر بجوٍّ صالح للصناعة .

إن الصناعة تحتاج إلى مواد خام ، وليس بمصر من هذه المواد الخام ما يفى بمتطلبات الصناعة .

واستجاب عملاء الاستعمار إلى هذا التوجيه ، وأعلنوا – كما أعلن المستعمر – أن مصر بلد لا تصلح فيه الصناعة . وردّد عملاء الاستعمار هذا الإعلان ، بحجة المستعمر . (ليس فى مصر مواد خام) . .

وكل مصرى يعلم أن هذا كله باطل ، وأن المواد الخام أو معظمها ، موجودة بمصر ، وأن مصر بلد صناعى ، بمقدار ما هو زراعى ، ومع كل ذلك فقد بدأ « البترول » يسيل شيئاً فشيئاً ، وبدأت الآمال عريضة فى تيسير الله تعالى لتدفقه .

تحديد النسل ! ! إنها فكرة منكرة ! !

وهى إذا اتخذت الأساس ، ضيق ذات اليد ؛ فإنها فكرة تخالف الدين ؛ يحرمها الدين .

وأقولها بالصوت الجهير ، وأكتبها بالخط العريض : إنها فكرة ليست فى مصلحة مصر .

ويمكن أن نقول مع « الدكتور على عبد الواحد » عميد علم الاجتماع فى مصر : إن مشكلة مصر قلة النسل .

وعلى ذلك ؛ فإن ما ينفق على مراكز تنظيم النسل ، يجب أن ينفق على شىء نافع ، ويجب أن تغلق هذه المراكز .

« اللهم إنى قد بلغت ، اللهم فاشهد » .

وأعود إلى ما انقطع .

عزبة « أبو أحمد »

ولدت فى « عزبة » أبى أحمد .

« وأبو أحمد » هو جدّ والدى .

وقد بنى جدى هذه « العزبة » بيتاً ، بيتاً ، وكانت مسكناً للأسرة ،

وأصلح جدى أرضها ، فداناً ، فداناً ، وتسمى الآن « قرية السلام » تتبع « مركز » بلبيس ، وتبعد عن بلبيس بمقدار أربعة كيلومترات . وتبعد عن القاهرة بمقدار خمسة وأربعين كيلومتراً تقريباً .

يحدها شرقاً الصحراء الشرقية . ويحدها غرباً الترعة الإسماعيلية . وبين الصحراء والترعة الإسماعيلية ، خضرة ساحرة ، هى الأرض المزروعة الخصبة ، والعزبة على حافة الترعة الإسماعيلية .

موقع جميل ، موفق « الحمد لله » .

وأمام بيتنا حديقة صغيرة ، من أشجار الليمون والمانجو ، تحفها أشجار النخيل ، يفصلها عن البيت جدول من المياه يسمى فى الريف عادة « الخليج » .

لقد قضيت أياماً من أجمل أيام حياتى فى هذه الحديقة ، تحت شجرة ضخمة من أشجار الليمون . كانت كأنها خيمة ، تظللنا فى فراغها المتوسط ، وتحنو علينا بأفرعها وغصونها التى لا تصل إلى الأرض ، ولا ترتفع رأسياً . وكان للحديقة عبير منعش ، وكان فيها جمال وهدوء .

وكنت أقضى الصيف بأكمله تحت هذه الشجرة ، كنت دائماً فى شبه خلوة ، ومع ذلك فإننى كنت فى « العزبة » .

كنت أحمل الكتب فى أوائل الصيف ، وأحمل « الفرش » المناسب ، وأترك الكتب والفرش فى المساء ، لأعود إليها فى الصباح ، أقضى الساعات فى قراءة منوعة . تشرق علىّ الشمس وأنا فى الحديقة ، وتغرب الشمس وأنا فى الحديقة ، ولم يفصلنى عن هذه العادة فى الصيف إلا سفرى إلى « فرنسا » . وإذا نظرت إلى المكان وما اكتمل فيه من حسن

وبهاء . فإنى أقول : « الحمد لله » .

على أن هذه « العزبة » بجمالها ورونقها ، تقع فى البقعة الأم . . « محافظة الشرقية » وإنى لفخور « بمحافظة الشرقية » : هذه المحافظة التى تتسم بطيبة القلب ، وصفاء النفس ، والكرم ، ولو خيرت ما اخترت سواها ، « والحمد لله » .

جئت إلى الحياة على لهفة – من أسرتى – إلى الولد « الذكر » فقد سبقنى أختان ، وأخ ، استأثر الله به ، فى طفولته المبكرة !

وكان الجو كله – كما أخبرونى – مشبعاً بالأمل والرجاء فى ولد ذكر وجئت ! .

جئت فى جو من الترحيب – كما علمت فيما بعد – وترعرعت فى جو من الرعاية والعناية الفائقة .

فى الكُتَّاب

ولست أتذكر من طفولتى الأولى إلا أياماً قضيتها مع أطفال القرية ، ذكوراً ، وإناثاً ، فى « الكُتَّاب » .

مازلت أتذكر هذا الجوّ من الاحترام ، الذى كان يحيط بالقرآن الكريم ، وبسيِّدنا ، وبالكتَّاب .

كان أطفال القرية جميعاً فى هذه السن المبكرة – التى تروح بين الرابعة ، والخامسة ، والسادسة – يذهبون إلى الكتّاب ، ذكوراً ، وإناثاً ، ثم تتفرق بهم مسالك الحياة ، بعد ذلك ، فيما بين الثامنة والتاسعة غالباً .

أما بعضهم – القليل منهم – فإنه يواصل تعليمه . وأما الأكثرون فإنهم يذهبون إلى الحقل ، بعد أن يكونوا قد أخذوا بحظ – لا بأس به – من حفظ القرآن الكريم . .

وانتهت مرحلة الكتّاب – بالنسبة لى – بحفظ القرآن الكريم – ولله الحمد .

وكان يوماً مشهوداً : ذلك اليوم الذى ختمت فيه القرآن الكريم .

لقد كان والدى فى فرح غامر ، وكان البيت كله فى بهجة وسرور شاملين . وكانت حفلة حافلة ، بأطايب اللحم والثريد ، ختمت بالذكر ، شكراً لله تعالى .

أما سيدنا ، فإنه قد ظفر بما لم يكن له فى حسبان مكافأةً له وتقديراً والحمد لله .

كانت سنى صغيرة على الالتحاق بالأزهر ، وكان والدى يفكر فى أن يرسلنى إلى مكان ناء – نسبياً – لأتعلم فيه أحكام التجويد ، ولكن حنان الأم ، وحرص الأب على أن أكون تحت رعايته ، حالا بينى وبين تحقيق ذلك .

وياليتنى تعلمت أحكام التجويد صغيراً ! يا ليتنى ! ! .

القرآن مصدر الهداية

ولا بد هنا من كلمة إلى كل مسئول فى الدولة :

إن القرآن الكريم هو مصدر هدايتنا ، وأساس نجاتنا ، دنيا وأخرى ، ومهما اختلفنا فى أمر من الأمور ، فإننا لا نختلف فى النتيجة السعيدة ، التى تثمرها العناية بالقرآن الكريم ، للفرد ، وللأسرة ، وللمجتمع .

« إِنَّ هٰذا القُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ » .

التى هى أقوم فى العقيدة .

والتى هى أقوم فى الأخلاق .

والتى هى أقوم فى التشريع .

والتى هى أقوم فى نظام المجتمع .

وإن من مفهوم الإيمان عند كل مؤمن ، اليقين بذلك ، ولا يختلف المؤمنون فى شىء من هذا أبداً .

وتعاليم القرآن – فى كل زاوية من زوايا الحياة – هى الصراط المستقيم :

خذ مثلا العلم والحث عليه : العلم بالله ، وبالكون ، بالأرض وبالسماء ، وبما بين الأرض والسماء ، فستجد أروع ما قيل فى الحث على طلب العلم .

خذ مثلا الأمانة : تجد القرآن يُدخلها – كجزء لا يتجزأ – فى مفهوم الإيمان . يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« لا إيمان لمن لا أَمَانَةَ لَه » .

خذ الشورى . خذ الجهاد . وخذ الإعداد للجهاد ماديًّا ، ومعنويًّا .

خذ العمل ، والضرب فى الأرض ، والسعى فى مناكبها ، وخذ أروع الأخلاق الإنسانية العالمية من :

الرحمة ، « وما أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

العدل ، والإحسان . « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسَانِ » .

ومفهوم الإيمان الصادق . ما هو ؟

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ، وَأَنْفُسِهِمْ ، فِى سَبِيلِ اللهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .

فإذا أردت بياناً لهذه الآية الكريمة — فى شىء من التفصيل فستجد : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ . والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزكاةِ فاعِلُونَ . والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ . إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَراءَ ذَلِكَ فَأُولئِكَ هُم العادُونَ ، والَّذِينَ هُمْ لأَمَاناتِهِمْ وعَهْدِهِمْ راعُونَ ؛ والَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَواتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أولئك هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

وستجد : « إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ ، أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا . . . . » .

وستجد : « وعِبادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً ، وإِذَا خاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً . والَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وقِياماً . والَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ؛ إِنَّ عَذَابَها كانَ غَراماً . إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا ومُقاماً . والَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وكانَ

بَيْنَ ذٰلِكَ قَواماً . وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ ، ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ولا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثاماً . يُضاعَفْ لَهُ العَذابُ يَوْمَ القِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً . إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً . وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتاباً . والَّذِينَ لا يشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً . والَّذِينَ إِذَ ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمّاً وعُمْياناً . والَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً . أُولٰئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ويُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاما . خَالِدِينَ فيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا ومُقاماً » .

ستجد الخلق أسمى ما يكون الخلق ، وستجد التشريع المعصوم — الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — وستجد العقيدة أصدق ما تكون العقيدة .

إن الله سبحانه وتعالى يقول : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وعَدْلا » .

لقد تمت صدقاً فى العقيدة والأخلاق ، وتمت عدلاً فى التشريع ونظام المجتمع ؛ إنها تمت صدقاً فى جميع أجواء الصدق ، وتمت عدلاً فى جميع أجواء العدل .

وهى — فى صدقها وفى عدلها — خالدة أبدية . وكلها متضمنة فى القرآن الكريم ، وفيما بيّنه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيرته .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما بال قومنا ، اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ! ؟ .

إن الكثيرين – من كبار المسئولين – لا يؤدون للقرآن ما ينبغى له ، وإن الكثيرين – من كبار الأثرياء – لا يؤدون للقرآن ما ينبغى له ، وإن الكثيرين – من كبار المثقفين – لا يؤدون للقرآن ما ينبغى له .

وستنتهى حياة كل هؤلاء فى يوم من الأيام ، ولن ينفعهم جاههم ، ولا ثراؤهم ، ولا ثقافتهم . وإلى هؤلاء – جميعاً – نقول : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ ، ولْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، واتَّقُوا اللهَ ؛ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ . ولا تَكُونُوا كالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ . لا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وأَصْحابُ الجَنَّةِ ، أَصْحابُ الجَنَّةِ هُمُ الفائِزُونَ . لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً ، مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ ، لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . هُوَ اللهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ ، هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ المَلِكُ ، القُدُّوسُ ، السَّلامُ ، المُؤْمِنُ ، المُهَيْمِنُ ، العَزِيزُ ، الجَبَّارُ ، المُتَكَبِّرُ ، سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللهُ الخالِقُ ، البَارِئُ ، المُصَوِّرُ ، لَهُ الأَسْماءُ الحُسْنَى ، يُسَبِّحُ لَهُ ما فِى السَّمٰواتِ والأَرْضِ ، وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ » .

وما من شك فى أن هناك صفوةً من المتقين لهم عناية بالقرآن ؛ ولكن الجمعيات – التى تعنى بالقرآن – تعانى من بُخْل الأثرياء ، ومن تعويق المسئولين ما تعانى !.

وهناك مجموعة – قليلة – من « المحافظين » تتجه – مشكورة – إلى العناية بالقرآن ، ولكنها تخطو فى خطوات بطيئة ، أما وزارة التربية فإنها – فى حقيقة الأمر – المجال الخصب ، والحقل المثمر لو اتجهت نحو

القرآن الكريم ، بعزيمة صادقة .

وإن كل من يتجه إلى العناية بالقرآن الكريم ، فى وزارة التربية ، فإن الله سبحانه وتعالى سيجزيه خير الجزاء ، فى نفسه ، وفى أسرته .

« إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا » .

وسوف لا ينفع الأثرياء الشحُّ بمالهم ، فى هذه الحياة ، ولا فى الحياة الآخرة . ولقد شحّ الأثرياء بأموالهم – عن إنفاقها فى سبيل الله ، والعناية بالقرآن ، وتقوية الشعور الدينى : شعور الاستمساك بالكتاب والسنّة – فدارت عليهم الدائرة : مصادرة للأموال ، والحريات ، وتعذيباً ، وتنكيلاً ، وخسفاً ، وقمعاً وباءوا بالخسران والحسرة .

لقد التقى أحد كبار الأثرياء يوماً بشيخ من شيوخنا الصالحين ، فنصحه هذا الشيخ : بأن يقدّم لله ، ولآخرته بناء معهد دينى للقرآن الكريم ، وللعلم الشريف ، فأبى الثرى – صاحب الضياع الواسعة ، والآلاف من الأفدنة . ثم . . . ثم كان ما يعلمه كل ثرى ، شحّ بماله فى سبيل الله .

« يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقوا اللهَ ، ولْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، واتَّقُوا اللهَ . . .

ولعلك تتساءل :

« ما بال الأزهر لا يرعى هذا الجانب ؟ .

والواقع أن الأزهر يعنيه – فى الدرجة الأولى – إنشاء معاهد تخرج العلماء ، الذين يقفون سداً منيعاً ، يَصُدّ كل تيار منحرف ؛ إن الأزهر ، يجب أن يكون له فى كل قرية معهدٌ ابتدائى ، وآخر إعدادى ،

ويكون له فى كل بلدة معهدٌ ابتدائى ، وآخر إعدادى وثالث ثانوى . أما المدن وعواصم المحافظات ؛ فإن الأزهر يجب أن يكون له فى كل حى معاهد من كل نوع مما تقدم ولكن يحول دون ذلك قصور ميزانيته .

إن من أنفس أعمال الخير – التى يباركها الله سبحانه وتعالى ورسوله – إنشاء هذه المعاهد ، لما يرجى منها فى نشر الوعى الدينى وإحياء التراث الروحى . حقًّا ؛ إن كثيرين من أفراد الأمة المصرية – جزاهم الله خيراً – قد اتجهوا إلى بناء المساجد ، وهو عمل يشكرون عليه . وإن من الأعمال العريقة فى الخير إنشاء المعاهد لتحفيظ القرآن ، وتعليم العلم ؛ فإذا اتجه الخيّرون إلى إنشاء هذه المعاهد ؛ فإن ذلك يكون دليلاً على الأخذ بأسباب الإصلاح المثمرة .

وأحب أن أقول للعاملين على الإصلاح : إن من وسائل الإصلاح الأخلاقى الحاسمة ، أن ينشر الوعى الدينى فى استفاضة ، ولن يتأتى ذلك إلا إذا أكثرنا من المعاهد الدينية الأزهرية . . . ونضرع إلى الله تعالى مخلصين أن يوجه الخيّرين إلى ذلك .

فى المدرسة الأولية

. . . ثم ذهبت إلى المدرسة الأولية – بعد أن أدّى الكتّاب رسالته ، وأتممت فيه حفظ القرآن ، ولما أصبحت فى سنٍّ مناسبة للالتحاق بالأزهر ، رافقنى أبى إلى القاهرة ، وهناك ألحقت به ، بدأنا الدراسة فى المسجد . « مسجد إبراهيم أغا » .

وأعود إلى حياتى من جديد لأحمد الله سبحانه ، لا أحصى ثناء عليه ، هو تعالى كما أثنى على نفسه ، إنه الكمال المطلق ، والرحمة الكاملة ، وأرحم الراحمين ، ورحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ورحمته بى أعم وأعظم من أن أفى بحمدها ، وأعظمها : أعظمها على الإطلاق أننى نشأت « مسلما » ولا يتأتى أن أصل إلى التعبير الذى يصور ، أو يقارب ، شكرى لله تعالى على ما من الله تعالى به علىّ من هذه النعمة التى أتمها الله تعالى ، وهذا الدين الذى أكمله الله ، وهذا الإسلام الذى رضيه . وأن يكون إمامى وقدوتى وأسوتى هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى لا يقال فيه إلا ما قال البوصيرى :

ومنتهى القول فيه أنه بشر ... وأنه خير خلـــق الله كلهم

الإسلام لكل زمان ومكان

أما عن الإسلام الذى لا دين غيره فلا مناص من أن نعطى القارئ لمحة عنه إلى أن ييسر الله تعالى الاستفاضة عنه .

الإسلام على الحقيقة ، كما يقول الإمام البخارى هو الذى يؤخذ من قوله تعالى :

« قالَتِ الأَعْرابُ آمَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنوا ، ولَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا » (١).

---

(١) وقريب من هذا الذى ذكره الإمام البخارى ما ذكره الراغب الأصفهانى فى المفردات=

أما إذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل ذكره :

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ » .

وعلى قوله سبحانه :

« وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » .

الإسلام – الدين الخالص – يقول عنه « الراغب الأصفهانى » إنه « فوق الإيمان » : وهو أن يكون – مع الاعتراف – اعتقاد بالقلب ، ووفاء بالفعل ، واستسلام لله ، فى جميع ما قضى ، وقدّر ، كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام فى قوله :

« إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ »

« قال : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالَمِينَ »

وقوله تعالى :

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ » .

وقوله :

« تَوَفَّنِي مُسْلِماً »

أى اجعلنى ممن استسلم لرضاك ، ويجوز أن يكون معناه : اجعلنى سالماً عن أسر الشيطان ، حيث قال :

« لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » .

= من أن الإسلام فى الشرع على ضربين :

أحدهما : وهذا الذى تذكره الآية الشريفة دون الإيمان . وهو الاعتراف باللسان ، وبه يحقن الدم ، حصل به الاعتقاد ، أو لم يحصل ، وإياه قصد بقوله تعالى « قالت الأعراب آمنّا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا » . اهـ .

أما الضرب الثانى فهو الذى ذكرناه بعد رأى الإمام البخارى .

وقوله :

« إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ » .

أى منقادون للحق ، مذعنون له .

« يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا » .

أى الذين انقادوا من الأنبياء — الذين ليسوا من أولى العزم — لأولى العزم (من الرسل) الذين يهتدون بأمر الله ، ويأتون بالشرائع (١).

وهذا المعنى الذى ذكره صاحب المفردات ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعنى اللغوى لكلمة « إسلام » .

يقول « ابن الأنبارى » المتوفى سنة ثلثمائة وثمان وعشرين من الهجرة ، فى المعنى اللغوى للكلمة .

« المسلم : معناه المخلص لله فى عبادته ، من قولهم سلم الشيء لفلان : خلص له . فالإسلام : معناه ، إخلاص الدين ، والعقيدة لله تعالى (٢).

وسواء نظر الإنسان إلى المعنى الشرعى للكلمة ، أو إلى المعنى اللغوى ، فإنه يجد أن هذا اللفظ لا يشير :

١ — إلى شخص معين ، كما تشير « البوذية » مثلا إلى « بوذا » ، و « الزرادشتية » إلى « زرادشت » .

٢ — ولا إلى شعب معين ، كما تشير « اليهودية » إلى شعب بذاته .

٣ — ولا إلى « إقليم » أو بلد معين ، كما تشير « النصرانية » .

والدين الذى يدل ، أو ينتسب ، أو يشير إلى شخص معين ،

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى .

(٢) تفسير الفخر الرازى الجزء الثانى ص ٣٢٨ المطبعة الخيرية سنة ١٣١٨ هـ .

أو إلى شعب معين ، أو إلى إقليم معين ، يتحدد زمنه – ضرورة – بابتداء الشخص ، أو الشعب ، ويتحدد بالمكان ، ولكن كلمة « الإسلام » لا تدل على زمان ، ولا مكان ، فهى :

٤ – لا تشير إلى زمن يحدها .

ولا إلى مكان تتقيد به .

وتضعنا هذه الكلمة – مباشرة – فى جو عالمى ، مطلق ، بل فى جو عالمى ، يتخطى حدود هذا العالم الأرضى – إذا أمكن ذلك – فلا يتقيد به ، ولا يتحدد بحدوده .

إنها لا تحد بالبعثة المحمدية : فسيدنا نوح عليه السلام يقول لقومه : « فإنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أجْرٍ ، إنْ أجْرِيَ إلَّا عَلَى اللهِ ، وأُمِرْتُ أَنْ أكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ(١) ».وسيدنا إبراهيم ، يقول عنه القرآن الكريم .

« ما كانَ إبْراهِيمُ يَهُودِيًّا ، ولا نَصْرانِيًّا ، ولَكِنْ كان حَنِيفاً مُسْلِماً . وَمَا كانَ مِنَ المُشْرِكِينَ »(٢).

وحينما كان سيدنا إبراهيم يرفع القواعد من البيت ، هو وسيدنا إسماعيل أخذا يدعوان الله سبحانه قائلين :

« رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . رَبَّنا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، ومِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وأرِنا مَناسِكَنَا ، وتُبْ عَلَيْنَا ، إنَّكَ أنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »(٣) .

---

(١) يونس : ٧٢ .

(٢) آل عمران : ٦٧ .

(٣) البقرة : ١٢٧ ، ١٢٨ .

ولم ينس سيدنا إبراهيم ، وسيدنا يعقوب أن يوصيا بنيهما بالإسلام . يقول تعالى :

« ووصَّى بِهَا إبراهِيمُ بَنِيه ، ويَعْقُوبُ : يا بَنِيَّ إنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ، فَلاَ تَمُوتُنَّ إلا وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .

وحينما حضر سيدنا يعقوب الموت ، قال لبنيه مستفسراً ، ليذهب إلى ربه مطمئناً :

« ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟

قالُوا : نَعْبُدُ إلهَكَ ، وإلهَ آبائِكَ إبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ وإسْحاقَ إلهاً واحِداً ، ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون(١) » .

وقال سيّدنا موسى لقومه :

« يا قَوْمِ ، إنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ باللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ، إنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ(٢) » .

وسيدنا يوسف يتجه إلى الله بالحمد ، والشكر ، والدعاء :

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأحادِيثِ ، فاطِرَ السَّمواتِ والأَرْضِ ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِماً وأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(٣) » .

وأوحى الله إلى الحواريين أن : آمنوا بى ، وبرسولى .

« قَالُوا :

آمَنَّا ، واشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ(٤) » .

---

(١) البقرة : ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) يونس : ٨٤ .

(٣) يوسف : ١٠١ .

(٤) المائدة : ١١١ .

ولما أحس عيسى من قومه الكفر ، سألهم قائلا :

« مَنْ أنصارِى إلى اللهِ ؟ » .

قالَ الحَوَارِيُّونَ :

« نَحْنُ أنْصَارُ اللهِ ، آمَنَّا باللهِ ، واشْهَدْ بِأنَّا مُسْلِمُونَ (١) » .

على أن تسمية أتباع الدين الإسلامى – فى العصر الحاضر – بالمسلمين ، كانت تسمية سابقة على وجودهم الزمنى ، فلقد بيّن الله سبحانه فى آية من القرآن بعض جوانب الرسالة الملقاة على عاتق الأمة الإسلامية وأشار فيها إلى سيدنا إبراهيم ، وهى آية من آيات التوجيه الإلهى ، الذى يجب أن يكون شعار كل مسلم . فقال سبحانه :

(وجاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّين مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أبِيكُمْ إبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، وفِى هٰذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وآتُوا الزَّكاةَ ، واعْتَصِمُوا باللهِ ، هُوَ مَوْلاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى ، ونِعْمَ النَّصِيرُ » .

ومن البديهى أن يكون « الإسلام » بهذه المكانة من العموم ، والشمول فى المكان ، ومن عدم التحديد بالبعثة المحمدية ، فإن أساسه لا يختلف فيه اثنان ، وإن مبادئه الجوهرية حينما تعرض على النفوس المخلصة ، لا تجد إلا القبول والإذعان .

---

(١) آل عمران : ٥٢ .

أساس الإسلام وجوهره

والقرآن يعرض الإسلام – فى أساسه وجوهره – فى كلمات قليلة ، لا مناص من الإيمان بها عندما يوجد الإخلاص ، يقول تعالى ، آمراً رسوله الكريم .

« قلْ : إنَّما يُوحَى إِلَىَّ أنَّما إِلٰهُكُمْ إلٰهٌ واحِدٌ ، فَهَلْ أنْتُمْ مُسْلِمُونَ[١] » .

ويأمره صلى الله عليه وسلم ، فى خطابه مع أهل الكتاب أن يقول لهم :

« قُلْ : يا أهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ، ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، ولاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ ، فإنْ تَوَلَّوْا ، فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ[٢] » .

ويبين لهم الله سبحانه وتعالى إحدى علامات الصادقين والمرسلين ، مفرقاً بهذه المناسبة بين الكفر ، والإيمان ، فيقول :

« ما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتابَ ، والحُكْمَ ، والنُّبُوَّةَ ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ : كُونُوا عِباداً لِى مِنْ دُونِ اللهِ ، ولٰكِنْ كُونُوا ربَّانِيِّينَ ، بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتابَ ، وبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ .

ولا يَأْمُرَكُمْ أنْ تَتَّخِذُوا المَلائِكَةَ ، والنَّبِيِّينَ أرْباباً ، أيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أنْتُمْ مُسْلِمُونَ[٣] » .

---

(١) الأنبياء : ١٠٨ .

(٢) آل عمران : ٦٤ .

(٣) آل عمران ٧٩ – ٨٠ .

ويبين الله فى عموم شامل ، وفى شمول عام – فى صورة استفهام تقريرى – جوهر التدين ، فيقول سبحانه :

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ ، وهُوَ مُحْسِنٌ ؟ » .

ومن هذه الآيات السابقة ، نعرف أن جوهر الإسلام هو :

١ – **فى العقيدة** : إسلام الوجه لله ، ومعنى إسلام الوجه لله :

الإيمان بوحدانيته ، كما ترشد إليه الآية الأولى ، مما أوردناه سابقاً ، ووحدانيته سبحانه تقتضى « ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً » .

إنها تقتضى ألا نتخذ « الملائكة والنبيين أرباباً » .

وتقتضى أن نكون ربانيين ، والربانية فى العقيدة ، أن يكون الله – وحده – هو المقصود ، والمرجو .

٢ – **أما فى الأخلاق** : فإن جوهر الإسلام هو : الإحسان . والربانية كما تكون فى العقيدة ، فإنها تكون فى الأخلاق . والربانية فى الأخلاق أن يتخلق الإنسان بالأخلاق التى أمر الله بها .

والإسلام – إذن – كلمة شاملة لإسلام الوجه لله ، وللإحسان ، والإحسان – فى الحقيقة – يؤسس على إسلام الوجه لله ، وينبع منه ، فإسلام الوجه لله – فى النهاية – هو : الإسلام .

ولن يتأتى أن يعارض أحد ، أو يرفض إسلام الوجه لله ، إلا هؤلاء الذين خلت قلوبهم من معنى التدين .

ومن البديهى – إذن – أن الإسلام – إسلام الوجه لله – هو طريق الهداية .

« فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَهْدِيَهُ ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ[١] » .

ومن شرح الله صدره للإسلام – إسلام وجهه لله – فهو على نور من ربه .

« أفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ ، أُولَئِكَ فى ضَلالٍ مُبِينٍ[٢] » .

ومعنى إسلام الوجه لله : قد فسره الله سبحانه وتعالى حينما وضع ذروته ممثلة فى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول :

« قُلْ : إنَّ صَلاتِى ، ونُسُكِى ، ومَحْيَاىَ ، ومَمَاتِى ، للهِ رَبِّ العالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أمِرْتُ ، وأنا أوَّلُ الْمُسْلِمِينَ[٣] » .

ولعلّ أول آية نزلت من القرآن الكريم ، تشير إلى هذا المعنى أيضاً ، وكانت بذلك توجيهاً من أول الأمر إلى أن يكون العمل باسم الله ، لا باسم شىء آخر ، أو كائن آخر .

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ[٤] » .

وآيات أخرى أشارت إلى المعنى الذى نقصده ، ناهية عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه :

« ولا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ، وإنَّهُ لَفِسْقٌ » .

أما ما ذبح على النصب ، فإنه فسق أيضاً ، لأنه لم يذكر اسم الله عليه ، أو لأنه – بتعبير آخر . لم يرد به وجه الله تعالى .

(١) الأنعام : ١٢٥ .
(٢) الزمر : ٢٢ .
(٣) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٤) العلق : ١ .

والإسلام – إذن – وفى ضوء ما سبق ، هو الدين فى إطلاقه المطلق ، وفى تحديده المحدد ، فما لاشك فيه أنه لا دين خارج إسلام الوجه لله ، وأن الدين – فى معناه الصحيح – إنما هو إسلام الوجه لله ، وسواء عرّفت الدين بهذا التعريف ، أو ذاك ، فإن معناه الصادق هو إسلام الوجه لله .

ومن هنا كان لفظ الإسلام أصدق تعبير عن الدين ، وكانت القضية :

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ (١) » .

قضية لا شك فيها :

وكانت القضية المترتبة على هذه :

« وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ (٢) » .

قضية – هى الأخرى – لا شك .

إن كل من يرفض إسلام الوجه لله ، إنما يرفض الدين .

وبمقدار بعد الإنسان أو قربه من إسلام الوجه لله ، يكون قربه أو بعده من المعنى الصادق للدين .

وليس بغريب – والأمر كذلك – أن يتحدث القرآن الكريم عن طائفة من أهل الكتاب ، انطوت جوانحهم على الإخلاص فيعلنون إسلامهم بمجرد أن يتلى عليهم القرآن ، بل يعلنون أنهم كانوا من قبله مسلمين ، يقول تعالى :

---

(١) آل عمران : ١٩ .

(٢) آل عمران : ٨٥ .

« وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا : آمَنَّا بِهِ ، إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنا ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ، وَيَدْرَؤُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وقالُوا : لَنا أَعْمالُنا ، ولَكُمْ أَعْمالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، لا نَبْتَغِي الجاهِلِينَ[1] » .

والنتيجة المنطقية لما سبق ، ما أعلنه القرآن الكريم بقوله تعالى :

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً ، والَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ، وما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ ، ومُوسَى ، وعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ، ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ : كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ . اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ، ويَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ » .

ويقول سبحانه :

« قُلْ آمَنَّا بِاللهِ ، وما أُنْزِلَ عَلَيْنا ، وما أُنْزِلَ عَلَى إِبْراهِيمَ ، وإِسْماعِيلَ ، وإِسْحاقَ ، ويَعْقُوبَ ، والأَسْباطِ ، وما اوتِيَ مُوسَى ، وعِيسَى ، والنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[2] » .

وإسلام الوجه لله هو التوحيد ، وإذا كانت سمة النصرانية – في وضعها الراهن ، على ما يروى « البيروني » – هي التثليث ، فإن سمة الإسلام – حسبما يقول بحق . هي التوحيد . إنها توحيد الله بالربوبية ، بالخلق ، بالإيجاد ، بالإعطاء ، بالمنع .

---

(١) القصص : ٥١ – ٥٥ .

(٢) آل عمران : ٨٤ .

« قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) » .

إنه سبحانه وتعالى يملك الملك ، فى اليسير منه ، والعظيم ، فى الصحة ، فى القوة ، فى الجاه ، فى الرزق ، فى الغنى .

وهو يملكه فى الناحية القلبية : وقلب الإنسان بين إصبعين من أصابع الرحمٰن ، وهو يملكه فى الهداية : « وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ » .

وهو يملكه فى الآخرة : « مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » .

إنه سبحانه وتعالى : المتصرف المطلق فى الصغير والكبير ، لا يعزب عن علمه ، ولا عن قدرته ، ولا عن إرادته وحكمته مثقال ذرة فى الأرض ، ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وهيمنته شاملة عاملة مطلقة .

ونعود فنذكر قوله تعالى :

« قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ ، تَعالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا ، فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٢) » .

أى فإن لم يعترفوا معكم ، بأنه يجب أن تخصص العبادة لله وحده ، وأن ينتفى الشرك به سبحانه ، وألا يتخذ المخلوقون بعضهم بعضاً أرباباً . . . أى فإن لم يعترفوا بهذا التوحيد ، وأعرضوا ، فأعلنوا : أنكم مسلمون أى موحدون .

---

(١) آل عمران : ٢٦ .

(٢) آل عمران : ٦٤ .

الإسلام هو التوحيد

والإسلام – كما كانت الأديان فى نقائها ، وصفائها من قبل – إنما هو التوحيد ، وهو دعوة إلى التوحيد ، فالتوحيد : – أى إسلام الوجه لله – جوهره ، وأساسه . وكل تعاليمه ، ومبادئه : إنما هى توحيد ، وهى وسائل ومناهج للوصول بالإنسان إلى التوحيد : « أشهد أن لا إله إلا الله » ، إنها رسالة السماء الخالدة وأشهد أن محمداً رسول الله . . الذى بلغ الرسالة ، فأدى – بهذا التبليغ الصادق – الأمانة ، التى وكلت إليه ، وهى التوحيد .

التوحيد : هو مبدأ الإسلام وجوهره ، ولكن التوحيد ، ليس مجرد قول ، وليس مجرد كلمة لا أساس لها فى القلب والشعور .

وإذا لم يؤمن الإنسان بالتوحيد إيماناً يملك عليه جميع أقطاره ، فيتغلغل فى جميع أنحاء شعوره ووجدانه ، ويغمر قلبه ونفسه ، ويكيف جسمه ، ويوجهه الوجهة السليمة . . . فإنه لا يكون كامل الإيمان .

ومن أجل إيجاد الإنسان الموحد فى صورة واقعية . . . كانت تعاليم الإسلام .

فالصلاة إنما هى انفصال عن كل ما سوى الله ، من أجل الاتصال بالله ، فهى توحيد .

ومن هنا كان بدؤها « الله أكبر » لتشعر الإنسان من المبدأ أن جميع ما فى العالم من سادة ، وجميع ما فى العالم من بشر – تتعلق

بهم الآمال ، أو يناط بهم الرجاء – فإن الله أكبر منهم ، وأجل وأعظم ، فيجب أن تتعلق الآمال به وحده ، وأن يقتصر الرجاء عليه سبحانه .

ثم تتوالى جميع الأوضاع فى الصلاة ؛ من قراءة ، وركوع ، وسجود ، وتشهد ، لتعلن – بكل حركة ، وبكل وضع – الانفصال عما سوى الله ، من أجل الاتجاه إلى الله وحده : ومن أجل إسلام الوجه إليه سبحانه .

والصوم : إنما هو تنزه عن المادة ، وعن السوء فى القول ، والعمل ، فترة من الزمن ، من أجل مرضاة الله ، إنه تنزه عن نقص البشرية ، الذى يتمثل فى شهوات المعدة ، لتخلص الروح فترة إلى التأمل فى كمال الله . إنه محاولة للتخلق بأخلاق الله ، لأنه – سبحانه – الكمال المطلق ، الذى لا يحتاج إلى شىء ، والذى لابد لمن يأمل فى شىء من الكمال ، من أن يتحلّى بما أراده – سبحانه – منه ، إنه تنزه عن النقص فى سبيل التوحيد .

والزكاة : إنما هى بذل المادة فى سبيل الله ، إنها بذل المادة ، التى يجرى وراءها البشر ، ويكادون يعبدونها ، بذلها بعد امتلاكها ، ، بذلها وقد كان فيها – لو أراد – الوسيلة للملاذ ، والشهوات ، إنها تجرد عن المادة ، توحيداً لله سبحانه .

وأما الحج – والله نسأل أن يكتبه لنا كل عام – فإنه تجريد كله ، إنه تجرد عن الماضى ، فهو فى بدايته التوبة عن الذنوب ، والآثام – أى عن الفترات التى غفل الإنسان فيها عن ذكر الله – فأشرك معه غيره ، واتخذ إلهه هواه ، فنسى الله ، فوقع فى المعصية ، والإثم .

هو تجرد ، حتى عن ملابس الماضى ، وهو تلبية من أول لحظاته ، تلبية هى استجابة لله – وحده – أو هى توحيد خالص ، إنها استجابة

كاملة للأمر بنفى الشريك .

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك ، لا شريك لك » .

إن هذا النداء الذى يتعالى – وله عبير طيب ، وله سناء متألق . فيصعد إلى السماء ، فتفتح له أبوابها ، إن هذا النداء إنما هو الانطواء الكامل تحت راية التوحيد .

وتتوالى أعمال الحج كلها ، واضحة سافرة ، أو ومزية مستعلية ، معلنة التوحيد ، منادية به ، طائفة وراءه ، ساعية من أجله ، واقفة تستشرفه ، راجية من الله – سبحانه وتعالى – أن يقبل أصحابها فى زمرة الموحدين . يقول الله تعالى :

« وما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ، إلاَّ نُوحِي إلَيْهِ ، أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ أَنَا فاعْبُدُونِ » .

هذه بعض معالم التوحيد فى العقيدة .

ومعالم التوحيد فى الأخلاق ألا يصدر عن الإنسان ، ولا يرد فى سلوكه الشخصى ، أو فى سلوكه الاجتماعى أمر إلا عن توجيه إلهى .

ومعالم التوحيد فى « النية » أن يكون الإنسان – فى كل ما يأتى . وما يدع – قاصداً وجه الله تعالى ، هو أن تكون حياته كلها لله ، وليست الحياة وحدها ، وإنما الممات أيضاً .

والتوحيد – على العموم – هو أن يهب الإنسان نفسه لله ، فى قيامه ، وجلوسه ، فى نومه ، ويقظته ، فى حديثه وصحته ، فى غضبه ، ورضاه ، فى صداقته ، وعداوته ، فى بيعه وشرائه ، فى عمله وراحته ، فى أفكاره

وآرائه ، فى توجيهه وإشاراته ، فى نصائحه ، وتحذيراته ، فى كل نفس يتنفسه ، أو طرفة عين يطرفها .

ونعود فنذكر – كقانون جامع – أن توحيد الإنسان : هو أن تكون صلاته ، ونسكه ، ومحياه ، ومماته لله رب العالمين ، لا شريك له .

ويقترب الإنسان من المثل الأعلى الإسلامى بمقدار قربه من هذه المعانى :

عقيدة ، وأخلاقاً ، ونية .

وقوله تعالى :

« ألا لله الدِّين الخالِص » .

إنما يشير بها إلى خلوصه من كل شائبة شرك . سواء أكان الشرك فى العقيدة ، أم كان فى الأخلاق والنية . والله – سبحانه – أغنى الشركاء ، فمن عمل عملاً لله ولغيره ، فإن الله – سبحانه – برىء من عمله ، وكذلك من اعتقد شريكاً لله ، فالله برىء منه .

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » . وذلك كله يسلمنا إلى أن المعنى الحقيقى للإسلام هو كما ذكرنا :

إسلام الوجه لله ،

ويعبر عن هذا فى وضوح جميل الحديث الشريف الذى رواه الصحابى الجليل عمرو بن عبسة قال :

قال رجل : يا رسول الله . ما الإسلام ؟

قال صلوات الله وسلامه عليه « أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك [١] » وما من شك فى أن سلامة المسلمين من لسان الإنسان ويده إنما ترجع إلى إسلام قلبه لله ، وإنها على حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » .

وعلى حد قوله صلى الله عليه وسلم :

« ألا إن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت ، صلح الجسد كله ، وإذا فسدت ، فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

إسلام الوجه لله

وقد يتساءل إنسان : وما كيفية إسلام الوجه لله ؟

– ما هى الوسائل لذلك ؟ .

– ما الطريق ؟ .

أما الوسائل : فإنها المبادئ الإلهية ، التى قررها الله – سبحانه . على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : قرآناً كانت ، أو سنة قولية ، أو عملية :

ولا مناص لكل من يريد أن يسلم وجهه لله – سبحانه – من أن يرجع فى ذلك إلى القرآن ، ومن أن يرجع فى ذلك إلى السنة ، أى أنه لا مناص لكل من يريد الهداية ، أو التدين ، أو الحق ، من أن يلجأ إلى القرآن ، والسنة . وذلك أن القرآن الكريم ، إنما هو النص الوحيد

(١) رواه الإمام أحمد ورجاله رجال الصحيح .

فى العالم الآن الذى احتفظ – بحفظ الله له – بالتعبير الإلهى ، الذى يشرح الدين ، ويوضحه ، دون تحريف ، بزيادة أو نقص ، والقرآن لم يحتفظ – بما أوحاه الله – بالمعنى فحسب ، وإنما احتفظ بالتعبير نفسه ، وهذه منزلة ، لا تدانيها منزلة ، ودرجة فى الدقة والصدق لا يضارعها غيرها حتى ولا من قرب . وإنها لمفخرة – للمسلمين كبرى ، أن يكون الدين الذى يدينون به ، إنما يرجعون فيه إلى النص الإلهى نفسه ، فى دقته ، وفى نضارته ، وفى بركته ، وفى سنائه ، ولألائه .

وإنها لمفخرة للغة العربية ، أن تحتفظ بالنص الإلهى الوحيد فى العالم ، أن تحتفظ بالكتاب الذى أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

* * *

أما النتيجة الأولى التى نريد أن نصل إليها ، فهى أن الدين ، وإسلام الوجه لله ، والتوحيد ، والإسلام كلها بمعنى واحد ، يفسر بعضها بعضاً . ويشرح بعضها بعضاً ، وكلها مطلقة عامة ، لا يحدها زمان ولا مكان . وكلمة « الإسلام » خير ما يعبر عنها فى جرسها ، وفى كمالها :

« اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ، ورَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً » .

والنتيجة الثانية : هى أن جوهر الشخصية الإسلامية ، أو شخصية المسلم ، إنما هى إسلام الوجه لله ، أو التوحيد ، أو التدين الصادق ، أو الإسلام .

وبمقدار قرب المسلم من الإسلام يكون كمال شخصيته .

فى غيبة التشريع الإسلامى

وهذا الإسلام الذى نشأت عليه والذى أحمد الله حمداً جزيلا على هذه النعمة الكبرى التى لا تعدلها نعمة قد طبق وخرج عن أن يكون مجرد مبادئ إلى أن أصبح واقعاً فأنتج بعقائده وأخلاقه وتشريعه خير أمة أخرجت للناس ، واستمر الإسلام يطبق التشريع الإلهى المعصوم عدة قرون إلى أن أنشأت مصر ما سمته المحاكم المختلطة وتخلت فيها عن التشريع الإسلامى وفى هذه الفترة بالذات بدأ الاحتلال وبدأ التخلى كلية عن التشريع الإسلامى فإنه حينما احتل المستعمرون أرض الإسلام بدأوا يهدمون كل ما يقوى الشعور الإسلامى فى النفوس ، ومن أجل ذلك غيروا القوانين الإسلامية ، وأتوا بقوانين أوربية ألزموا بها أهل الأوطان المحتلة ، وأتوا بقضاة من بلادهم يحكمون بقوانينهم ، وينشرون تشريعهم ، ولم يكتفوا بذلك ، وإنما أنشأوا مدارس لتعليم القوانين الأوربية ، وأصبحت هذه المدارس كليات حينما أنشئت الجامعات : هى كليات الحقوق ، وهذه الكليات تدرس القوانين الأوربية ، وتنفق عليها الدولة لتخرج قضاة ووكلاء نيابة ومحامين تخصصوا فى التشريع الأوربى ، واستمر الأمر كذلك سنين طوالاً ، فبدا على مر الزمن وكأنه أمر طبيعى ، وأصبح انفصال المسلمين عن شريعتهم ، وإحلال شريعة أوربا محلها أمراً عادياً ، ولا يجدون غضاضة فى إنفاق الأموال الطائلة على كليات تفصلهم عن تشريعهم الإسلامى . .

وما من شك فى أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم أيام أن كان الاستعمار جاثماً على صدور الأمم الإسلامية يأمر فيها وينهى ، ولكن الاستعمار قد خذله الله وانهزم ، ورجع المستعمرون إلى بلادهم ، وكان من الطبيعى أن يزيل المسلمون آثار الاستعمار فى :

* التعليم الذى وضع المستعمر برامجه لتخرج مجرد موظفين .
* وفى اللغة التى كان يحاول أن يقضى عليها كما فعل فى الجزائر . .
* وفى الأخلاق التى حاول أن ينزل بها إلى مستوى لا تنهض معه أمة . .
* وفى التشريع الذى جعله أوربيًّا وأحله محل شريعة الإسلام .

ومهما تكن مقاومة آثار الاستعمار فى ميادين مختلفة مما أفسده ، فإن مقاومة هذه الآثار وإزالتها فى مجال التشريع لا نجد لها أثراً فى وزارات العدل فى مختلف الأقطار الإسلامية ، ولا نجد لها أثراً فى دوائر القضاء . .

ومن سخرية الأقدار أن يقول قائل : وأين هو القانون الإسلامى الذى نحكم به ؟

فقط للشريعة الإسلامية ؟ . .

أترى لو أنشئت هذه الكليات فى فرنسا أو فى إنجلترا أكانت تفعل أكثر من ذلك ؟ . . وهذه الكليات هى السر فى تخلفنا فى مجال التشريع ، وذلك أنها دفعتنا بالتبعية للمشرعين الغربيين تدور فى فلكهم ، وتسير على خطواتهم . .

والتشريع الإسلامى من مفاخر الحضارة الإسلامية ، ورجاله من نوابغ المفكرين فى العالم ، لكننا الآن – بعد ذلك النبوغ وتلك العبقرية – قد أصبحنا أتباعاً مقلدين . .

وهذا الموضوع أطرحه أمام القادة ، ولعلى الله يحدث بعد ذلك أمراً فيما يتعلق بهذه الكليات . .

ولكن السؤال الملح الذى يطرح نفسه بعد ذلك هو ما حدث فى غيبة التشريع الإسلامى ، ماذا حدث ؟ شر كله . . وإننى حينما أتحدث عن فترة غيبة التشريع الإسلامى التى مازالت مستمرة لا أتحدث عن مصر

فلا تسترعى الانتباه ، الإلحاد فى دين الله كفراً وارتداداً ، والإلحاد فى دين الله استهتاراً بالقيم الدينية . .

٢ – والإلحاد فى دين الله جدلاً فى الحدود القاطعة التى فرضها الله عقاباً على الجرائم .

وإذا أخذنا الآن بعض الأمثلة فإننا نقول :

إن قطع يد السارق أمر فرضه الله لاخلاف فيه ، وهو علاج ناجع ضد السرقة ، ويكفى أن يرى الناس الجد فى التنفيذ ، يكفى أن تقطع يد سارق أو اثنين أو عدد لا يصل إلى أن يعد على أصابع اليد ، فتمتنع عن السرقة نهائياً . .

وقد تمر أعوام لا تقطع فيها يد ، وذلك أن طابع الحد يجعل كل من تسوّل له نفسه السرقة ينظر إلى يده فيتخيلها مقطوعة ، فيرهب ويهرب من مجرد التفكير فى الأمر . .

ولكن ذوى التفكير المنحرف يهرجون بأن الأيدى سيقطع كثير منها فتكون البطالة ، وتقل الأيدى العاملة ، ويقل الإنتاج ، ويستمرون فى هذا التهريج كلما دعا داع إلى كتاب الله . .

وفى غيبة التشريع الإسلامى أنشأت الدول المستعمرة فى بعض الأقطار الإسلامية مزارع ومصانع لإنتاج الخمور ، والخمر على حد الوصف فى القرآن : « رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ » . قليلها حرام ، وكثيرها حرام ، واتخاذها كدواء حرام ، فما جعل الله دواء أمتى – كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – فيما حرم عليها . . وقد ذهب الاستعمار إلى غير رجعة ، وكان من الواجب على هذه الدول أن تغير الوضع الاقتصادى فيها

فتقضى على المزارع والمصانع التى أعدت من قبل لإنتاج الخمر . .

فلا بد من تحريم ما وصفه الله بأنه رجس من عمل الشيطان فى كل الدول الإسلامية . .

٣ – وفى غيبة التشريع الإسلامى كان هذا الطوفان من العرى ، ومن كتب الجنس ، ومن هذه الأفلام التى تثير الغرائز وتفسد الشباب ، والتى تنفق عليها الدول أموالاً طائلة وتخسر الملايين فى سبيل ذلك . .

ومن المصائب التى تبكى أن يفكر فى إنشاء المسارح فى الأحياء الدينية ، وفى شهر رمضان ، وكأن إنشاء مسرح للمطربين والمطربات و . . و . من صميم الدين ؟ وكان الأولى أن يقام سرادق للقرآن أو الدعوة الإسلامية فى المناسبات الدينية ، وفى كل الأوقات . .

٤ – وفى غيبة التشريع الإسلامى كان الربا ، وكثرت الرشوة والاختلاسات ، وكان كل هذا الرجس الذى تعيش فيه بعض الأقطار . .

ولننظر إلى كلمات الله تعالى ، فنجده سبحانه يقول :

« وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بما أَنْزَلَ اللهُ فَأُلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » . . ويقول :

« وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ » . . ويقول :

« وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكافِرُونَ » ويقول :

« فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بينهم ثُمَّ لا يَجِدُوا فى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

والواقع أن الحكم بما أنزل الله هو إقامة حدود الله ، والله سبحانه وتعالى يقول فى الصفات الإيمانية عن المؤمنين :

« . . . والحافِظُونَ لِحُدُودِ الله » .

وحفظ حدود الله ، وإقامة حدود الله ، إنما هى لكل إنسان بحسب موقعه فى المجتمع . .

فإذا ما طبق المجتمع حدود الله والتزمها ، فإن الله سبحانه يمده بنصر دائم ، وهو سبحانه يمد بهذا النصر الفرد إذا التزم حدود الله ، ويمد به المجتمع إذا طبق حدود الله ، وقد أبان الله سبحانه وتعالى ذلك ، إنه سبحانه يقول :

« ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فى الأرْضِ أقامُوا الصَّلاَةَ ، وآتَوُا الزَّكاةَ ، وأمَرُوا بِالمعْرُوفِ ونَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ ، ولله عاقِبةُ الأمُور » .

أما دوام النصر فإن الله سبحانه وتعالى يقول عنه :

« وعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أمْناً . . »

وما من شك فى أن النصر من عند الله وحده :

« وما النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ » .

وما من شك فى أنه إذا نصر الله فلا غالب لمن نصره :

« إنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ » .

ولقد وضع سبحانه قوانين للنصر ، ووضع قوانين لدوام النصر ، وكلها تتركز فى طاعته فيما أمر ، وفى الانتهاء عما نهى .

أيها الإخوة المؤمنون ، إن قوله تعالى :

« ولَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وأنْتُمْ أذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

يجب أن يدوى دائماً فى آذاننا ، وأن يكون دائماً على ألسنتنا ، وأن تمتلئ به قلوبنا ، وأن نحقق التقوى . .

وإن الذين يحبون أن يكونوا فى عداد من رضى الله عنهم ورضوا عنه ، لن يصلوا إلى هذا الرضوان إلا إذا عملوا على نشر كلمة الله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، والطريق أمامهم مفتوح للعمل والنشاط . .

ويكفى إرادة الخير ، ونية الخير ، ليصلوا إلى مرضاة الله ، وليكونوا فى زمرة من رضى الله عنهم ورضوا عنه ويكونوا من حزب الله :

« أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . .

وبعد :

فلا ريب فى أن جهادنا المقدس للنهوض بالمجتمع ، كل ذلك لم يفته بعد ، ومن أجل الوصول بجهادنا إلى غايته التى نرجوه لها ؛ وهى تطبيق الإسلام بجميع كلياته وجزئياته . يجب على كل منا أن يتحمل مسئوليته فى ذلك بحسب موقعه فى المجتمع .

إن القرآن الكريم يستعمل مادة « أمر » حينما يتحدث عن مسئولية كل منا تجاه المجتمع الإسلامى :

« تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » .

والرسول صلى الله عليه وسلم يستعمل « أمر » كذلك .

عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« والذى نفسى بيده لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » .

(رواه الترمذى وحسنه) .

وروى الإمام مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ما من نبي بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريّون وأصحابٌ يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوفٌ يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدَهُم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدَهُمْ بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهَدهُم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

فإذا ما تحمل كل منا مسئوليته بحسب موقعه فى المجتمع عاد أمر الأمة الإسلامية على ما كان عليه : قوة وعزة ومرضاة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم .